الكواكب في شعر
المعتمد بن عباد الأندلسي

د. عبد الله حمادي
كلية الآداب و اللغات
جامعة منتوري
قسنطينة /الجزائر

لقد حفل شعر المعتمد بن عباد* بظاهرة فريدة قل أن نجدها عند شاعر معاصر له أوسابق له أوجاء من بعده؛ فقد طفحت ظاهرة الكواكب في شعره حتى تجعل المتمعن فيها تشده بثرائها الفاحش وتواردها المطرد الذي يكاد يطغى على كافة أوصافه؛ وقد يكون مرد ذلك في رأينا إلى احتمالين: أو لهما ثقافة الشاعر الفلكية وهوأمر لم يعرج على ذكره مترجمو سيرته الذاتية أو الدارسون لآثارة الشعرية أما الاحتمال الثاني فقد يكون بإيعاز لاشعوري أو شعوري لتغلغل الروح الملوكية التي تعتلج بداخل كيانه فجعله مسكونا بالتعبير عن رفعة جلاله ،وعظيم سلطانه بما يستوجب المقام؛ فكانت الكواكب والأقمار اللألاءة والسيارة هي العاكسة الحقيقية لدرجة الرفعة والبريق والدوام؛ إنها المنارات الهاديات واللآلئ الخافقات التي تعشي بضوئها الوهاج كل مظاهر الظلمة والفناء والسكونية والزوال...لذا يمكن التكهن بالتوفيق في هذا المسعي للشاعر ابن اللبانة في مطولته البكائية والتي مطلعها

(لكل شيء من الأشياء ميقات) والتي جاء فيها مخاطبا المعتمد ومن خلاله آل عباد:

لهفي علي آل عباد فإنهم أهلة مالها في الأفق هالات(1)

إنها الأهلة أو الكواكب التي تواتر ذكرها بشكل ملفت للانتباه المحير عبر ثنايا المتن الشعري الذي لم يتدرج عادة على ركوب مثل هذه الأوصاف القمرية والتي بزغت مؤشراتها الأولي،

---

*ولد الملك الشاعر المعتمد بن عباد بمدينة باجة جنوب البرتغال حاليا سنة 441 هـ / 1040 م وتوفي سنة 488هـ / 1095 م .

تولي إمارة اشبيلية عام 461 هـ وخلع عام 484هـ .وبخلعه انتهى عصر الطوائف بالأندلس.

أنظر ابن خاقان مطمح الأنفس ص: 2 وابن دحية المطرب ص: 14

كما هو معلوم في تراثنا الشعري الأصيل منذ أن استخدمها الشعراء لتلعب دور الهوادي، أودور شروق وجه المحبوب ؛ وغروب كاسات العقار في الفم الفاغر... وأقصي تجلياتها حسب علمي كان مع الشاعر الجاهلي النابعة الذبيا ني الذي جعل الكواكب مرادفا موضوعيا للملوك ،وقد أقر بذلك لممدوحه المفضل النعمان بن المنذر ملك الحيرة قائلا له شماتة في حساده ونكاية في من يرهق نفسه عبثا من أجل مجاراته .

كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب(2)

وأعتقد أنّ من هذه البداية ظل حيز الأقمار محدود الاستثمار من قبل الشعراء، وظل تعداد قافلة الأقمار لايتعدي بضع عينات يقف القمر والجوزاء والثرايا والشمس وأحيانا المشتري والشّعرى في المتن الشعري لتأدية دور المفضي إلى هالة الانبهار بالشيء أو المتلمس الاهتداء إلى المرغوب أو المتمتع بلذة العقار والوجه الصبوح (3) .

هذا ما يمكن اقتناصه من تراثنا الشعري لكن الأمر مع المعتمد قد تجاوز كل التوقعات وبات توجه أو نزوع الشاعر الملوكي يفضي به إلى العب من معين المعالي والتي لاتجد لها منزلا أعز وأطول من منازل الكواكب والنجوم ومختلف الأفلاك السيارة في فضاءات الآفاق اللامتناهية .

إن المتمعن في آثار المعتمد الشعرية والتي جمعت في ديوان متواضع حاول محققه أن يلملم كل شتات ذاكرة المعتمد الشعرية ويأتي بكل ما تبقى من نفاضة جراب هذا الشاعر الأنموذج ليصدم لأول وهلة بالحضور المكثف لولع الشاعر الملك برصد الكواكب والنجوم ومختلف الأقمار في غمار ديوانه الشيق والجميل والممتع.

لقد تمكنت بعد قراءة متفحصة من إخراج عدد مواقع الكواكب وأنواعها حسب التدرج الآتي إذ احتل فيها النجم الصدراة بستة عشر موقعا وتليه الشمس في خمسة عشر موقعا ثم البدر في ثلاثة عشر موقعا والقمر في تسعة مواقع والكواكب في تسعة مواقع أيضا والثريا في خمسة مواقع والسعد في أربعة مواقع والهلال في ثلاثة مواقع والسعود في ثلاثة مواقع والزهراء هي أيضا في ثلاثة مواقع والجوزاء في موقعين والفرقد في موقعين والمشتري والشهب والنيرات وكيوان والمريخ والشراسيف كل منها في موقع واحد ؛ويلي هذه الكواكب ذكر بعض منازلها كالبروج والفلك والنسر والعذراء والأسد وكذلك النوء...

اسم الكوكب	عدد المواقع التي ذكر فيها
النجم	16 موقعا
الشمس	15 موقعا
البدر	13موقعا
القمر	9مواقع
الكواكب	9 مواقع
السعد	4 مواقع
الهلال	3مواقع
السعود	4 مواقع
الزهراء	3 مواقع
الجوزاء	2 موقعان
الفرقد	2موقعان

في حين ذكر المشتري و الشهب والنيرات و كيوان و المريخ والشراشيف في موقع واحد

إنّها نسبة عالية إذا أخذ بعين الاعتبار الحجم المتواضع لديوان الشاعر وسنحاول من خلال هذه المقارنة المتواضعة تلمس المغزى من حضور مثل هذه النيرات في أشعار المعتمد ونبدأ تفحصنا للظاهرة بحسب التدرج العددي التالي :

أولا : النجم : هذا الكوكب الذي حفل به ديوان المعتمد واحتل الصدارة من بين الكواكب الأخرى إذ سجل حضورا كما أسلفنا في ستة عشر موضعا تفاوتت من حيث البعد الجمالي والهدف الرمزي الذي وظف من أجله ؛ فالنجم كما نعلم من خلال تراثنا الفلكي الهائل كان دوره في بداية المطاف الهداية إلى الهدف المنشود، كما أنه من خلال بعده الدلالي يؤشر إلى ما يحدث أو سيحدث ،ومن هنا قال ابن قتيبة "أن لاتقلب ولاتصرف في القلوب إلا بالنجوم عنوا بمعرفة مناظرها .ولحاجتهم إلى الانتقال من محاضرهم إلى المياه وعلمهم أن لانقله إلا لوقت صحيح يوثق فيه بالغيث والكلاء ، عنوا بمطالعها ومساقطها ،هذا مع الحاجة إلى معرفة وقت الطرق ووقت النتاج ووقت الفصال ووقت غور مياه الأرض وزيادتها وتأبير النخل ووقت ينع الثمر ووقت جواده، ووقت الحصاد ووقت وباء السنة في الناس وفي الإبل وغيرها من النعم بالطلوع والغروب "(4) كل هذا الذي ورد ذكره وغيره كثير كان مرتبطا بالنجوم .

والمعتمد كشاعروملك مثقف أحيط علما بماكان متاحا في ثقافة عصره،لم يغفل الاستفادة من هذه الظواهر المقرونة بالسحرية والأساطير فأولى محطاته مع النجم كانت استجابة لداعي الغزل الذي يحتاج إلى مثل هذا البريق ؛فقد ورد ذكر النجم مقرونا بهالة السعد الحافل بالعطاء والنماء ليفضي فيما بعد إلى الانفتاح على هالة الحبور المشوب بالانبهار والا حزن والمقرون بفعل

الغياب المتأرجح بين الرجاء والأمل أو الأفول والنقصان على حد تعبير المعتمد فكان دور النجم في هذا الاختفاء الغزلي دور الفاعل في الاحداث إذ يقول المعتمد :

...سرورنا بعدكم ناقص والعيش لاصاف ولاخالص
والسعد إذ طالعنا نجمه وغبت، فهو الأفل الناقص
سموك بالجوهر مظلومة؛ مثلك لايدركه غائص(5)

ولما استحضر أمام المعتمد قول ابن المعتز المُلوكي هو الآخر مبتهجا في وصفه للغناء والطرب كان رد المعتمد على التحدي الفني بالبديل المنتظر ؛لذا جاء دور النجم ليعمل عمل البدل ومعبرا عن الانبهار والمقرون بفعل الاستلاب إذ يقول :

فوقفت ثم محيرا وتسلبت مني يدالاصباح تلك الأنجما(6)

لكن دور النجم في حضرة الخمرة جاء محمولا على الإضافة ومقرونا بفعل الحركة- التناهض- الموحي بالتأهب لاستكمال مجمع الأنوار؛ أنوار زهر النجوم ولألاء الأقداح المفعمة بغبطة الخمرة ...الكل جاء لاستكمال مفعول الحدث:

... وتناهضت زهر النجوم يحفه لألاؤها فاستكمل اللألاء(7)

وإذا كان الأمر يتعلق بضرورة استحضار آلة الغناء ليتم الانغماس أكثر في بوتقة السرور فإن الأنجم الموظفة تراء ت في حالة الجر المحفوفة بفعل الهداية التي تعود من خلاله النجوم إلى دورها التراثي كهاد لطارق ليل أو لمن جاء معور كما يقول عمر بن أبي ربيعة ؛فيقول المعتمد باحثا عن غاية :

...فنسير في طرق السرور نهتدي بحفيهن بأنجم الأقداح(8)

أما اذا اقترنت اللذة بالذكرى فإن النجوم عادة ما تكون رفيقة لمثل هذه المتاهة الذهنية ولتؤدي دور الأنيس المضمد للجراحات وبخاصة إدا تعلق الأمر باستحضار المعتمد لهول

المصاب الذي أودى بأولاده الثلاثة فتجد النجوم تتحكم في زمام الأمو لتؤدي دور الفاعل متوسطة بين فعلي الحركة دار وسكر اللذان يقدمان حالة من حالات التحول والغياب :

في ليلة دارت علي نجومها حتى سكرت بكلف قوت الأنفس (9)

وتنعتق النجوم في حالة الوصف لتأتي في صيغة الجر موشيه ظهر المجن الموصوف وتعقد القران بين الأطواق والأوفاق .

...وتزدان أطواقه بالنجوم كما لبس الأفق ثوب الصباح (10)

وحين صعد المعتمد من نبره إزاء عزة ملك والده المعتضد أورد النجوم مقرونة بفعل المستقبل المتنامي في درجة صعود سلم المعالي، فكان دورها مفعولا به أمام إرداة الفاعل الممدوح

...لازلت تنتعلُ النجوم وخدقتلك في التراب (11)

لكن لما أراد المعتمد نفي النفي للإثبات عمد إلى توظيف النجوم في صيغة الاضافة ليؤكد إلى ممدوحه المثنى عليه الشاعر عبد الرحمان بن ظافر المعروف بالدباغ أنه يمتلك زمام الكلم المصفى الذي يشرق إشراقه النجوم من خلال الحلك :

... أمطلع زهر نجوم الكلا م ومشرقة من خلال الحلك (13)

وحين تعلق الامر بإخفاق المنجم وحصل من أمر يوسف بن تاشفين ما حصل كان على المعتمد أن يجعل النجوم تفند رأي المنجم ويكون دورها خبرا مقدما ليجعل حد تكهن والاستفهام والتساؤل المحرج ويقرن كل ذلك بأفعال وحروف القطع كعاد، وقد لتسد مسد التردد والأمل المغيب:

...أرمدت أم بنجومك الرمد فقد عاد صدا كل ما تعد (14)

إلا أن يوم "العروبة" كان بالنسبة للمعتمد يمثل أكثر من معنى ومن مغزى وهو يوم أشاد فيه المعتمد مقرا لخصمه يوسف ابن تاشفين بصدق العزم وحسن البلاء لأنه هو القائل فيه دون

سواه تقريبا :

..." ويوم العروبة ذدت العدى نصرت الهدى وأبيت الفرارا
ولولاك يايوسف المتـــقي رأينا الجزيرة للكفر دارا (15)

ويوم العروبة كما هو معلوم؛ هو يوم الزلاقة عام 479 هـ / 1086 م المعروف في تاريخ انتصارات الأندلس الكبرى على المسحيين الأسبان وفضل التسمية بهذه الصيغة يعود إلى المعتمد حسب علمي ،والمؤرخون والتراجمة هم عالة عليه فواحد كابن خاقان مثلا أكثر من ترديد هذه التسمية المدوية ولا نعثر في كتاباته على تسمية الزلاقة (16) هذا اليوم كان مشهورا ومشهودا وكان فيه للنجوم حظ الحضور كيوم عمورية وإن كان يوم العروبة أكثر وقعا ... فدور النجوم جاء ليقترن لمعانها بلمعان السيوف وهي سمة من سمات الألى الذين ترسم خطاهم المعتمد ويعتبر نفسه فرعا من أصولهم، وفعل الرؤية الذي ينصب مفعولين بقوةاختراقه جرّ في طريقة النجوم لترى رؤية العين المجردة بين نور الضحى والغبار المثار؛ أي بين نقيضين دائمي اللمعان حتى ولو في حالة احتدام الصراع كماهي الحال في يوم العروبة :

...رأينا السيوف ضحى كالنجوم وكالليل ذاك الغبار المثارا(17)

وعلى إثر كل مظاهر الابتهاج والنور التي أوقدت نجوم قلب المعتمد يأتي دور النجوم الثاني ليقتفي آثار التي أدمت قلب المعتمد وهو يفتقد أعز مالديه المال ، الولد ، السلطان ، العزه ، الجاه ويعوض كل ذلك بالثكل والحزن والمنفى وهكذا ... فللنجوم مطالع كما أسلفنا الذكر وبمطالعها يكون الاهتداء وبعده النجاة .

وفي المقابل فللنجوم مغارب أو مهاو وبها يكون التية والحيرة ثم الخسران المبين . فلما سقط ولده الفتح المأمون بن عباد أبو النصر ، وأبو عمر وسراج الدولة وكذلك الراضي أبو خالد لم

يكن أمام الشاعر ،والفارس المهيض الجناح من بد سوى التوسل برفعة النجوم لأنها قرائن للعزة حتى ولو جاءت في ضيافة الجر المعدوم الفعل والفعالية فيقول المعتمد باكيا شاكيا :

... ينحن على نجمين أثكلن ذا وذا

وياصبر ماللقلب في الصبر من عذر(18)

ودائما بنفس وتيرة السياق الجنائزي المؤثر يرفع المعتمد من شأوالقتيلين ليصدر بهما الابتداء المعطوف على ما سبق الواقعة ويعرف في الوقت ذاته بالمكان- الفلك -الذي هوى فيه النجمان برغم بريق نور الشباب فيكون كما هو متوقع من سياق الجملة خبرهما القبر وفعلهما الإحتواء:

... ونجمان زين للزمان احتواهما

"بقرطبة" النكداء أو "رندة" القبر (19)

والعجب كل العجب أن ترى قرطبة هنا تنعت بالنكد وقبل هذا الوقت كان المعتمد في زمن النجوم الطوالع يخاطبها بهذا التشوف المسكون بالغرام :

...خطبت قرطبة الحسناء إذ منعت

من جاء يخطبها بالبيض والأسل

وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها

فأصبحت في سر المحلي والحلل(20)

إنها صورة كرست حضورها في الشعر الغربي وفازت بقصب السبق في مجال التصوير الفني حتى غدت شرعة ترسّم خطاها شعراء الأمم الأخرى وخير دليل على ما نقول هو احتفال "شعر التخوم الإسباني" بمثل هذه الصور التي تعرض مدن الأندلس ، وغرناطة منها على وجه التحديد، أمام المتدافعين عليها من الملوك الغزاة عروسة تمتدُيدُ العرسان إليها طالبة الزواج منها وكان الملك

الإسباني "الدون خوان" من القرن الخامس عشر هو أحد المغرومين بها كما صورته أشعار التخوم في القصيدة الشهيرة في الأدب الإسباني "يابن الأحمر يابن الأحمر...

وبعد هذا الفضل نعود ثانية لنقول إن الشاعر المعتمد لم يجد من مناص سوى اللجوء مرة أخرى إلى النجوم فالموقف مُلوكي حتى ولو تعلق الأمر بالسقوط ،والإذعان لإرادة أعظم وأقدر من أي مقاومة؛فالأمر والنهي واجب في مثل هذه الحالات ،والنجم مجرور وفاعل فالأمر سواء لأنهما قد حُوصِرا بفعلي البكاء والحزن كما أقر الأمر :

..... فقل للنجوم الزهر يبكيهما معي

لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهر(21)

إنها لحظات النجم إذا هوى ... ولابد من الفاعل أن يكون لا يطاق فألحاظة النارية كانت بحجم كوكب النحس كيوان :

... لقد هوى بكما نجمان ما رميا

إلا من العلو بالأحاظ كيوانا(22)

ويختم المعتمد مطاف الحزن المعبر عنه بواسطة النجوم متهالكا في طريق الدركات ليعشي في الختام قمر القضاء والقدر بقايا النجم بأغمات ، لذا توجب نصب النجوم أمام فعل الغياب فالكل يسري إلى أجل وكل جار سيلقى غاية الأمد :

.... أن النجوم التي غابت قد اقتربت منا

مطالعها تسري إلى القمر (23)

وفي ختامنا لعرض دور النجوم كما شاء لها المعتمد يمكن الخروج بملاحظتين في غاية المغزى ، فالنجوم في ديوان المعتمد لعبت دورين : دور عملي متفائل ودور سكوني متشائم . فالدور العملي المتحرك لاحظنا من خلاله النجوم كانت في حالة هداية

ودليل لذا اقترن حضورها بصفات كالإشراق والإزدهار والتلألؤ والضحى والاصباح .... أما في دورها الثاني فكانت النجوم مقرونة بالأفول والنقصان والرمد والحزن والبكاء لينتهي الكل إلى مصير القبر... إنها فطنة الشاعر التي فطر عليها ،فما إن تضافر الشعور واللاشعور حتى توازن الانسجام وأدرك الفن الأصيل مبتغاه .

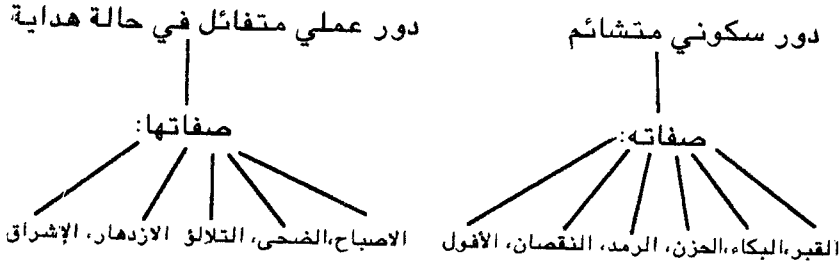

ثانيا : الشمس

تتصدر الشمس بعد النجم في ديوان المعتمد قائمة الكواكب السيارة المعبر بها كمعادل موضوعي على اختلاجات المشاعر ومعاناتها ...وليس بغريب أن يحفل شعر المعتمد بحضور كوكب الشمس ،فالمتن الشعري الذي يستند إليه ويعتبر نفسه فرعا من أصوله قد قرن، منذ فجر الإنشاد الأول ، الشمس بأبهة الملك فهم الشموس ودونهم الكواكب الهاويات ... ولما تعلق الأمر هنا بشاعر وملك ، في ذات الوقت، مع الإنتماء إلى أصول ملوكية بات استحضار الشمس فيه أكثر من ضرورة فعزة الملك وهمه النفس، وعلياؤها تربأ بالمعتمد بما دون الشمس مطمحا أو مرقاة ،لذا توزع حضور الشمس في شعر المعتمد بكثافة وجاء ليغطي خمس عشرة محطة أو يقطع خمسة عشر فلكا من أفلاك العزة والجلال فيساعد بريقها على ابتهاج الغزل وروعة الوصف والحبور .

فالشمس كانت تعني الكثير بالنسبة لميراث الشاعر لذا تفنن السابقون واللاحقون من بعدهم في التأنق في رصد أطوارها وأنوارها بل أشعتها مع الاهتمام بمواصفات إشراقها ومطلعها وغسقها كما تفننوا في ابتكار الأسماء التي تليق بهيبتها وجلالها وحرارتها واعتدالها فسمت العرب الشمس بالذكاء بضم الذال لأنها تذكو كما يذكو النار ... كما لقبت بالجوناء لشدة بياضها وقيل لها بلغة العشاق الغزالة .

وقد كان المعتمد وفيا لميراثه الشعري والمعرفي من علم الفلك والأنواء ،فجاء موضع الشمس في شعره ليلبي حاجة فنية ومعرفية في الوقت ذاته، ولم يكن من قبيل الصدفة أو الاحتذاء بالدربة والمجاورة .فشعر المعتمد كان دقيقا في التمييز مثلا بين طلعة الشمس في البكور والآصال ... وللشمس كما نعلم أحوال في الطلوع والغروب والزوال فعند طلوعها مثلا تطرف أي تضطرب وترتعش ، ولما تستوي في ارتفاعها تجد العيون الناظرة إليها تنكسر لذا كان المعتمد مصيبا في توظيف مشهد الشمس ليعبر عن نور النور أو إشعاع التوهج المسلط من طلعة الحبيبة..... كما كان دقيقا في ربط الكسوف بالشمس وترك فعل الخسوف للقمر وهو ما يجعلنا نتمكن من تحديد الفاعل والمفعول به فالقول الصائب كما أقره علم الفلك أن الكسوف من خصائص الشمس والخسوف من خصائص القمر لذا ترافق كل من فعل حجب وخسف ليؤديا الدور المنوط بهما فيتسبب فعل حجب المصحوب بالقيام ليجر الشمس بالإضافة ويؤكد فعل كسف للشمس دور الفاعل المسلط عليها من قبل القمر الذي لم يظهر مقرونا بفعل الخسوف وإلاوقع عليه فعل الفاعل؛ فالقمر هنا المتسبب في خسوف الشمس مما جعل شعاع الشمس يحال بينه وبين الناظر إلى درجة تدفع

بالنظر إلى اللجوء إلى فعل الاستشراف الذي تتحدث عنه العرب : قامت لتحجب ضوء الشمس قامتها

عن نـاظري ، حـجبت نـظر الغير

علما لعمرك منها أنها قمر

هل تكسف الشمس إلاصفحة القمر(24)

ونروح متدرجين مع حضور الشمس كما ورد ذكرها في ديوان المعتمد لنجدها في محل البدل في فضاء القلب الذي يحل محل البروج حتى يكون محطة للمرغوب :

... ياأيها الشمس التي قلبي لها أحد البروج (25)

ولما تعلق الأمر بمصدر النور كان لزاما أن ينشد الشاعر صياغه التعجب لأن فعل -ريعت -المبني للمجهول كأني به في سياق التجاهل المعلن لأصل الشئ ؛فالبرق المكرر واللمعان المبالغ فيه والأنوار كلها فروع من أصل واحد هو شمس الضحى التي حلت محل الخبر لترفع اللبس وكأنها تخبر في التساؤل الاستنكاري لتقول ما الداعي إلى الفزع في حين كان يستلزم الاطمئنان ففي آخر الهجرة الفروع تعود إلى أصلها :

... ريعت من البرق وفي كفها

برق من القهوة لماع

ياليت شعري وهي شمس الضحى

كيف من الأنوار ترتاع؟ (26)

ودائما في سياق التعجب والانبهار بالمشاهد التي تحدثها دوال الشمس في الكائنات المنحدرة من شعاعها، فغلام المعتمد الذي اقتحم غمار "يوم العروبة "-الزلاقة- دارعا ومفعما لم يكن أمام الشاعر من بد سوى الاستعانة بفعل(حسب) الذي يسطو على مفعولين حتى يتساوى شعاع الحيا المنبثق من تحت الشعاع مع

شعاع الشمس المنبثق بدوره من الضحى الملفع بالسحاب المعنبر مع حذف كل قرائن التشبيه حتى يكون المشهد بليغا .

إذا ما اقتحمت الوغى دارعا وقـنعت وجهك بالمغـفـر

حسبنا محياك شمس الضحى عليها سحاب من العنبر(27)

ويلجأ المعتمد مرة أخرى إلى حالات الكسوف والخسوف، ويأتي نفي الغياب متضمنا في سياق الحضور أمام إرادة الفاعل الشمس ومن هناك يتعين على اللائم أن لايكون أكثر قسوة لأنه لو وعى الموقف لعذر، فالزوجة المحبوبة الشمس حضورها يستدعي الكسوف أو الغياب:

.. خليلي قولا هل علي ملامة

إذا لم أغب إلا لتحضرني الشمس(28)

وحين يحل الممدوح الوالد محل الشمس يكون الابتداء ضرورة فينتج عنه فعل الخجل والغياب وهوموقف قريب مما سبق ذكره مع الزوجة:

.. الشمس تخجل من جمالك فتغيب مسرعة لذلك(29)

لكن طلعة الشمس، كما سبق وأن ذكرنا لها دلالالتها الجمالية والحسية فبكورها غير أصيلها.. وهنا أوردها المعتمد مقرونة بالنداء وتشكل تقابلا مماثلا للجود الذي هو أحلى على قلب الشاعر من كل مظاهر الابتـهـاج كـالزهو بالظفـر وإدراك المأمـول والاستمتاع بغناء المغنية "أريْوى" مع كاسات الصبوح وإضافة الشمس هنا معنوية:

الجود أحلى على قلبي مـن الظفـر

ومن منال قصي السؤل والوطر

ومن غناء "أريوى" في الصبوح لنا

ياطلعة الشمس في الآصال والبكر!(30)

حين تعلق الأمر باجتماع الأحبة وأصدقاء الشاعر مع الغبطة التي رافقت مجلسهم كانت حالهم آنداك حال الشمس في طلعتها في الصباح والتي تكون عادة في حالة ترنح أوميلان

قد طلعتم بها شموسا صباحا

فاطلعوا عندنا بدورا مساء(31)

لكن مواطن الجمال التي خلد منجزاتها المعتمد في مدينته الأميرة إشبيلية التي تشمخ بها مقاصره وقصوره" كالزاهي" و"المبارك" و"سعد السعود" جعلت المعتمد يلجأ إلى الشمس ليتركها تفعل فعلها فيهم ساعة الطلوع وساعة الغروب فيتقابل الضحك مع ماء النضار المذهب، ويعجب في آخر الأمر من تجرؤ الأقدار على اقتحام عظمة كل ذلك محاولة طرق ساحة مالايطرق ومستعملا فعل خلص كدلالة على الاختلاس والتسلل من بين زحام المسرات :

ماضاحكته الشمس إلا خلته

نضحت جوانبه بماء نضار

ياشمس ذاك القصر كيف تخلصت

فيه إليك طوراق الأقدار ؟ (32)

وتبقى الشمس حاضرة مع المعتمد وبخاصة إذا تعلق الأمر بمشهد ملوكي كتقاسم الهدايا بين الأحبة فالغزال للغزال في هذه الحالة والهلال للشمس حتى ولوكنا نعلم أن التأنيث والتذكير لكليهما لا يعيب :

بعثنا بالغزال إلى الغزال وللشمس المنيرة بالهلال(33)

ويصل المعتمد إلى نهاية المطاف مع الشمس ليعيد على الأذهان تأكيد رأي الفلكيين العرب القائل بأن الشمس لما تتم طلعتها تنكسر العيون عن النظر إليها وهو المقصود بقول الشاعر

من يرم ستر سناها لم يطق، فشعاعها القوى يحول بينها وبين الناظر إليها ويمكن النظر إليها في مثل هذه الحال بواسطة الاستشراف الذي يعني وضع اليد فوق الحاجب لذا لجأالمعتمد إلى الإخبار بالشمس على أصله ومجده الكريمين فهي سناء وسنا وفي النهاية تبقى الشمس هي البدء وهي الختام موضع الشمس كخبر جاء ليعا ضد مجد أسلاف المعتمد ويضفي عليهم نور النورحتى تنعدم الوسيلة إلى اتقاء مفعول السناء الذي جاء في صيغة الجمع وشُوهد شهود معاينة وليس شهود إخبار أو إشعار وبهذا غلق المعتمد الباب في وجه كل من لا يصدق معتمدا على أفعال الجرم :

مجدنا الشمس سناء وسنا　　من يرم ستر سناها لم يطق
وقديما كلف الملك بنا　　ورأى منا شموسا فغسق
قد مضى منا ملوكا شهروا　　شهرة الشمس تجلت في الأفق(34)

وما يمكن ملاحظتة في خاتمة استحضار الشمس في شعر المعتمد أن دورها كان في الأغلب الأعم جاء مؤازرا للوظيفة الجمالية والحسية لذا كان مصحوبا أو مدعما بصفات الإبتهاج كالسناء المتكرر ، والضوء والبرق المتكرر واللمعان والأنوار والصباح .

ونجد حضورها كذلك يأتي مدعما بأفعال التألق والانبثاق من مثل ارتاح واقتحم ، وحضر ، وطلع ، وضاحك ، ونضح وخلص وبعث ورأى واشهر وتجلى... .

أما الوجه الآخر المعبر عنه بحضور الشمس فهو الانكسار وتصاحبه مواصفات كالغسق والمغيب والقناع والمغفر والسحاب والخجل والستر والحجاب والكسوف والعنبر ... كما تدعمت هذه المواصفات الانكسارية بأفعال الضمور كغاب وحجب وقنع وستر ومضى وهي مواصفات وأفعال عاضدت الشمس لمؤزراتها عن الايحاء باقتراب حلول الطوارق المنذرة بالزوال .

ثالثا : البدر

لقد تصدر البدر قائمة الكواكب بعد النجم والشمس مباشرة واحتل في ديوان المعتمد ثلاثة عشر موقعا رغم دوره المقل في الحضور في فلك السماء ككوكب؛ والبدر هو القمر وهو الهلال ولكن إذا أردنا أن نقرب الفهم من الأذهان أكثر قلنا إن البدر هو سن الشباب بالنسبة للقمر وبذاك يكون القمر يمثل الشيخوخة والهرم، والهلال يمثل الطفولة؛ فالقمر هو التجربة والحنكة والتروي وجلال الوقار، في حين يمثل البدر الاندفاع والخيلاء والزهو المصحوب بالعنفوان الشبابي ، أما الهلال فهو البراءة والسذاجة في معانيها الإيجابية .

فالبدر، أو القمر، كما نعرف علميا لايضئ بنوره الخاص كما تفعل الشمس بل يعكس أشعة الشمس ، وربما لهذا السبب كان استحضاره شعريا من قبل المعتمد مواليا وراء الشمس ، ومن حسن حظ البدر أن عمره الحقيقي يبدأ ليلة أربع عشرة إذ يصادف وجوده الشمس في مقابله فتضاء صفحته كاملة ويتم بذلك جماله الشاعري وتألقه المبدع والمندوب من قبل الشعراء ...

وقد لا نعجب إذا كان البدر ، الذي لا يزيد عمره عادة ، عن الثلاثة أيام وهو يحتل في اكتماله هذا المحل الأرفع في شعر المعتمد ... فالظاهر أن اكتمال هيبة الملك لا تضاهى إلا باكتمال صفحة البدر لذا كانت فاتحة الاستنجاد بالبدر من طرف المعتمد محمولة بصرخة النداء المنبه للمخاطب، وهو القريب البعيد في الوقت ذاته، مع التأكيد على استعمال الإضافة المعنوية في نظم البدر في سياق الكلام حتى تكون قادرة على أن تعكس الإبتداع والحسن والإحسان كصفات للمعشوق الذي حل محله بدر التمام

حين حظي كما قلنا بالإضافة المعنوية التي تمتلها شدة الظلام آنذاك يكون للبريق البدري مفارقة جادة بين تقيضين: السواد والبياض؛ إنه العشق في زمن الملك والتملك :

... يابديع الحسن والإحسان، يابدر الدياجي (35)

ودائما في سياق الإفضاء للمعشوق؛ وهي أم الربيع ، اعتماد التي ملكت شغاف قلب المعتمد بشطر بيت من الشعر! فقيدته به إلى الأبد أو إلى لحظة الخسوف ، فهي أيضا تحظى بالإضافة المعنوية في تمامها للبدر وبخاصه إذا كان فلك طلعته قلب الشاعر .ومن هناك كان نفي النفي إثباتا ليرفع حصار الذنب المتوقع:

... تطن بنا أم الربيـــع سآمـــة

ألا غفر الله ذنـــبا تواقـــعـــه

أأسأم ظبيا في ضلوعي كناسه

وبدر تمام في فؤادي مطالعه؟(36)

ويروح البدر بفعل مفعوله في الشاعر زمن أيام تمام العز والاكتمال فسوار المعشوقة هو ببساطة متناهية منعطف البدر:

... وليل بعطف النهر لهوا قطعته

بذات سِوار مثل منعطف البدر(37)

ويتحدد أكثر دور البدر الزمني ليتقاسم أيامه المعدودات القليلات مع أيام الوصل التي أكد عليها معظم الشعراء العشاق؛ إنها لحظة عابرة وإن طالت لذا فإذا أضيف إليها التهديد بالهجر من قبل المقلّ بالوصال يكون الإندار بالخسوف متوقعا :

أكثرت هجرك غير أنك ربما

عطفتك أحـيانا علي أمـــور

فكأنما زمن التواصل بينا

ليل ... وساعات الوصال بدور (38)

ولما شعر المعتمد بها جس النشوة يهزه طربا لجأ من توه إلى البدر ساعة التقائه بالجوزاء التي تعد من الكواكب اليمانية وتسميها العرب "الجبار" تشبيها لها بالملك ، ولما يصير البدر - المعتمد- في إحدى منازلها يظهر على جبينه التاج فالرأس تمثله مجموعة الكواكب التي يسميها الفلكيون العرب < الهقعة > وهي كواكب صغيرة مستديرة متناسقة كالعقد تسمى تاج الجوزاء (*) لذا عمد المعتمد إلى هذا التشبيه الفلكي البحت والموافق ، الذي ما من شك أنه ثمرة ثقافة فلكية معتبرة يحظى بها المعتمد وإلا ماكان في وسعه أن يهتدي إلى مثل هذا السياق الشاعري الفريد :

...ولقد شربت الراح يسطع نورها والليل قد مد الظلام رداء
حتى تبدى البدر في جوزائه ملكا تناهى بهجة وبهاء
لما أراد تنزها في غربه جعل المظلة فوقه الجوزاء
وتناهضت زهر النجوم يحفه لألاؤها ، فاستكمل اللألاء
وترى الكواكب كالمواكب حوله رفعت ثرياها عليه لواء(39)

ودائما مع جو الانبهار والبهجة وأريحيةالعزة الملوكية يلجأ المعتمد إلى الاستعانة بالبدر لأنه لا يرى أملح وأكمل من صورته المعارة في صورة والده المعتضد، وحتى يكتمل بهاءه يعارضه بالنقيض المطلوب والمناسب ألا وهو الظلام حتى يستفحل شأن الأضداد ساعتها تجوز الإضافة المعنوية:

..... أوجه البدر يشرق في الظلام
وستر الله مد على الأنام!(40)

وفي ذات السياق يعمد الشاعر الملك إلى فرض موازين التداخل بين أبهة ملك والده وما تمثله وبين طلعة وهيبة البدر وما توحي به ساعة التوسل به لإتمام التام :

.... والبدر يطلع ناقصا حتى يتمم من كمالك (41)

والبدر هو شارة وهناء؛ بل قل لحظة عبور فريدة الندرة، ففي تمام طلعته يرخى ستر النعمة على الخليقة:

.... ليهنني إن طلعت بدرا لأعين الخلق مستتما! (42)

والبدر دائما في مثل هذه اللحظات الاحتفالية يكون لحظة فن لاتقاوم وبخاصه إذا تكون الحال على ماهي عليها في مجلس متعة كما هو الشأن مع جماعة الكتاب والشعراءوالوزراء الذين جمعتهم المتعة في الزهراء فكان المعتمد مراسلا من بعيد شموس الغبطة متلمسا منها انعطاف الأماسي وما عليها إذا استحالت إلى بدور فاللحضة واحدة وكوكب الشمس والبدر مافي تراسلهما وتبادل مواقعهما من بأس يذكر :

... حسد القصر فيكهم الزهـــراء،

ولعمرى وعمـــركم مـــا أساء!

قد طلعتم بها شموسا صباحا،

فاطلعوا عندنا بدورا مساء (43)

وفجأة ، نجد المعتمد يغير من حقيقة وظيفة البدر وذلك لما تعلق الأمر باشتعال نار فقدان الأحبة من البنين ، وضياع الملك وقرب النهاية ولم يلتفت المعتمد إلى مثل هذا التوظيف البدري المخل بالسياق العام الذي جاء البدر طوال دورته محدثا به وعنه إلا في ثلاث محطات شاذة وحزينة :

واحدة عند الفاجعة التي أحلت بأولاده الثلاثة ، والثانية في اعتذاره لشاعره الوفي ابن اللبانة الذي عايش مرحلة خسوف الملك المعتمد الذي كان قبل موعد المأساة بدرا يملأ الدنيا سناء وسنا والثانية وهويوصي وصيته الأخيرة لكي تكون شاهدا على قبره الذي سيضفر بأشلاء ابن عباد. فهي محطات كان من المفروض أن لا تكون فيها للبدر محطات ولكن ملوكية النفس وعلو همتها

تجعل البدور تظل بدورا حتى في نهاية دورتها التي غالبا ما تنتهي بالخسوف أو بالمحاق ،ومن يبكي ياترى المآتم خير من الأنجم الزهر التي تعرف باسم "بنات نعش" ، وقد وفق المعتمد أيما توفيق في استخدام فعل خمش للتعبير عن الحرقة المتزايدة المعبر بها عن المصاب:

ترى زهرها في مأتم كل ليلة

يخمشن لهفا وسطه صفحة البدر! (44)

ويرد على ابن اللبانة الشاعر الوفي والمتعجب من مآل سيده مذكراإياه بأن البدور هي بدورها تعرف الخسوف؛ وخسوف البدر كما هو معروف يأتي عندما تدور الأرض حول الشمس ويأتي عليها ضوء الشمس فتلقي ظلا طويلا في الفضاء. يحجب ضوء الشمس ويأتي على جزء معين من الفضاء الذي خلفها ، فإذا مر القمر من هذا الجزء المعتم فإنه يحجب عن ضوء الشمس بالأرض فيصبح معتما ويحدث ذلك فقط عندما يكون القمر بدرا كاملا وهذا هو المقصود من كلام المعتمد وهو كلام علمي ينم عن دراية المعتمد الواقعية بعلم الفلك ، لأن البدر في ذلك الوقت يكون معاكسا للشمس وهنا يمكن اعتبار يوسف بن تاشفين، من باب المجاز، هو المعني بفعل حدث الخسوف الذي أصاب بدر التمام -المعتمد -أو قل هو القدر :

ولا تعجب لخطب غض منه

أليس الخسف ملتزم البدور ؟(45)

ولما يتفاقم شأو المصيبة يكون مآل البدر الظلمات ، وظلمات المعتمد التي تنتظره بعد هذا الخسوف القصري هو" قبر الغريب .. أهو الحق ... أوهو الميعاد "كما تنبأ بذلك قبل الموعد ... وهو توفيق في توظيف البدر لغرض شاعري استدعته ضرورة

المقام :

... بالدهر في نقم ، بالبحر في نعم

بالبدر في ظلم بالصدر في النادي (46)

ولو أردنا الخروج بملاحظات جمالية من هذا التوظيف الموفق لهالة البدر من قبل المعتمد لقلنا في يسر إن البدر كان في معظم الفضاء الشعري مدعاة للمسرة ومعادلا طبيعيا لأيام الهنا لذلك رافقت طلعته البهية أوصاف الجمال في قمة معانيها كالبديع ، والحسن والإحسان ، والتمام ، والدياجي (لابراز النفيض) والوصال والملمك ، والبهجة والبهاء واللألاء والإشراف والكمال ...

وجاءت لتعاضد هذه الصفات المنتعشة أدواة كالاستفهام والتعجب مع أفعال التناهي أو التنامي كيقطع وكثر وشربت ، ويسطع ومد ، وتبدي وتنزه ، وتناهض واستكمل ويشرق ويطلع ويتمم ومستتم وتجلى ...

أما في الحالات القليلة التي حل فيها البدر محل الخسوف فكانت الصفات المرفقة له هي أوصاف التهالك المبشرة بالفناء كالمأتم ، واللهف ، والخطب والنقم والظلم وتعاضدها قلة من أفعال الضمور ومن مثل يخمشن وغض ...

رابعا : القمر

بعد البدر مباشرة نجد المعتمد يلج عالم القمر وهو من فصيلة سابقة إن لم نقل أصله ويروح الشاعر متدرجا مع كل منازله من الهلال إلى البدر وأخيرا القمر ، وكما نعلم إن للقمر مناذل وعددها الفلكيون في ثمان وعشرين منزلا ينزل القمر في كل ليلة بمنزل منها كضيف عابر منذ مهله إلى الليلة الثامنة والعشرين من محاقة .. فإذا صادف وأن تجاوز إلى الليلة التاسع والعشرين قيل عنه انه استسر ليلة ثمان وعشرين ، وفي السرار يكون نازلا بالمنازل أيضا فإذا بدا من الشهر الثاني هلالا طلع وقد قطع ليلة السرار منزلا من هذه المنازل (47)

وتسمى العرب القمر قمرا إذا بلغ الثلاث إلى غاية الرابعة عشرة فيصبح بدرا والأمر مع الشاعر المعتمد هنا يتعلق بالقمر الذي شرفه بتسع محطات في ديوانه، ولا نعني هنا طبعا الهلال ولا البدر الذي سبق وأن أفضنا من حوله الحديث، أما الهلال فسيأتي ذكره في موعده.

أما حديثنا عن الهلال فسيكون ضمن منظور الشاعر الذي يبدو أنه استضافه في شعره في حالات طفحت بالابتهاج والحب فقد جاء ذكره مقرونا بخطاب الغزل إذ يفاتح معشوقه بنبرة النداء مؤكدا لها بعد تواتر النداء أنها القمر، وجاء دور النداد المتكرر هنا لتنبيه المنادى حتى يستمع إلى المخاطب :

ياصفوتي من البشر ياكوكبا ! بل ياقمرا! (48)

ثم يزيد من نبرة التأكيد ليجعل من القمر خبرا ومضافا لفعله الذي سطا به على الشمس وآنداك يفرض عليها الكسوف، وهي حالة تعتري الشمس إذا مر القمر أمام وجه الشمس فإنه

يحجب تألقها وعند ذلك ترى باهتة على محيطه، وإن كسوف الشمس كما هو معروف علميا لا يحدث إلا إذا كان القمر جديدا لأنه يكون بين الأرض والشمس. ولكن حتى يحدث كسوف كامل يجب أن ينطبق القمر على الشمس ؛أي يأتيان خلف بعضهما تماما كأنهما في صف واحد ولذا وفق المعتمد أيما توفيق في إلحاق فعل كسف بالشمس لأنه من خصوصياتها وبفضل ورودها أمام الشمس تأكد لنا لغويا بأنه قد وقع عليها فعل الفاعل الذي هو صفحة القمر، وإذا نظرنا في البيتين تأكدلنا موقع المعنية بغزل المعتمد الذي تعامد في صف واحد مثل موقع القمر إذ كان المعتمد ثم المحبوبة ثم الشمس:

... قامت لتحجب ضوء الشمس قامتها

عن ناظري ، حجبت نظـــرا الغيـــر

علما لعمرك منها أنها قمر

هل يكسف الشمس إلاصفحة القمر!؟(49)

ودائما في حالة التنبيه على تميز المحبوب مع الإصرار على إحالته محل صدارة الابتداء وإضافة ما للقمر من إشراق مزهرله ... ويأتي السياق اللغوي خاليا من دور الأفعال لأن الأمر يتعلق بإقرار لايحتاج إلى سند

... والكوكب الوقاد حتى الدجى

في أفقه ، والقمر الأزهر(50)

ودائما في سياق الإثبات بالنفي يأتي دور القمر في حالة الحال مؤكدا على احتراق النور لحجب الظلام، والمقصود هنا هو غلام "يوم العروبة" الملثم

أو ليس وجهك فوقه قمرا

يجلي بنير نوره الحلك؟(60)

وضمن السياق المرسوم من قبل الشاعر يتصدر القمر الابتداء ليلعب دور الخبر أو المبتدأ المصحوب بجملة الفعل حتى يطمئن هذا القمر المحبوب عن المنزلة التي هو واقع فيها:

.. قمر غاب عن جفونك مرآ ه وسكناه في سواد فؤادك(61)

ويستعين المعتمد بالقمر ليجعل محل العفو المرجو من والده فيظهر القمر وفي طلعته الخبر :

إن كنت في حيرة من جرم مجترم

فإن عذرك في ظلمائها قمر (62)

وضمن دائرة منازل القمر التي من بين محطاتها فؤاد الشاعر حين يكون فضاء مفتوحا لرصد مواقع محبوباته أو أصدقائه الأعزاء من أمثال ابن عمار أو ابن زيدون، في مثل هذه الحال، نجد المعتمد يلجأ إلى مصاحبة القمر بياء النداء للتنبيه القريب

.. ياقمرا أفقه فوادي مقالة لم تشب بإفك (63)

ويأتي توظيف القمر للمرة الأولى مقرونا بأداة الجر المفضية بالمجرور إلى النهاية في الزمان وحتى المكان فالمعتمد في محبسه بأغمات والأيام أصبحت أمامه معدودات ولذلك حضر فعل غاب وأقترب وسرى للتبشير أو النعي بفاتحة النهاية!

أن النجوم التي غابت قد اقتربت

منا مطالعها تسرى إلى القمر(64)

وما يمكن ملاحظته كعادتنا في نهاية كل جولة مع كوكب من الكواكب هو دور القمر هنا والذي قدر منازلا إذ جاء ليؤدي دور المحرض على ارتكاب فعل الابتهاج فأولى ملامحه كان اقترانه الدائم بياء النداء الداعية للتنبية ، كما أنه احتل صدارة الابتداء والإخبار ولم يعرف الجر إلا في الإعلان عن قريب النهاية ولذلك

كانت الصفات المصاحبة له مفعمة بالابتهاج كالأزهر و نير نوره ، الحلك ... مع الاستغناء تقريبا عن دور الأفعال .

وفي المقابل فإن حالات التردد يكشف عنها الشاعر بصفات ملاحقة للقمر كالحلك والظلماء والافك ... مع حضور أفعال الضمور كغاب ،واقترب ، وتسرى ...

هذه عينات من الكواكب الوارد ذكرها في ديوان الشاعر وسوف نتبعها إنشاءالله بدراسة ما تبقي من كواكب أخرى .

هوامش البحث

1 - الفتح بن خاقان قلائد العقيان في محاسن الأعيان إعداد محمد العنابي دار الكتب الوطنية تونس ص 33

2 - عمر الدسوقي : النابغة الذبياني ط4 . دار الفكر العربي 1966 ص 230

3 - أبو هلال العسكري : ديوان المعاني 2 أجزاء مكتبة القدسي القاهر 1352 ه ص كتاب المبالغة (في وصف السماء والنجوم والليل والصبح والشمس والقمر ..)

من ص : 332 إلى 362 الجزء الثاني

4 - ابن قتيبة الدينوري : كتاب الأنواء (في مواسم العرب) ط1 مجلس دائرة المعارف حيدر آباد الهند 1956 ص 3

5 - المعتمد بن عباد : ديوان المعتمد جمع وتحقيق رضا الحبيب السوسي الدار التونسية 1975 ص 32

6 - المعتمد : ديوان ص 36 - 69 - 70 - 75 - 79 - 87 - 134 148 - 160 - من 6 إلى 15

16 - الفتح بن خاقان : قلائد ص 32

من 17 إلى 19 : المعتمد : ديوان ص 160 - 163 - 165

20 - ابن خاقان : قلائد العقيان ص 12

من 21 إلى 23 المعتمد : ديوان .. ص 165 - 166 - 189

من 24 إلى 34 - المعتمد : ديوان ص 29 - 25 - 61 - 73 - 94 - 107 - 131 - 142 - 144 - 147

من 35 إلى 46 - المعتمد : ديوان ص : 21 -29 48 - 53 - 69 - 82 94 - 95 - 131 162 -174 193

47 من ابن قتيبة : كتاب الأنواء .. ص 4 و 5

من 48 إلى 64 المعتمد : ديوان : ص : 20- -23 37 -61 - 72 100 - 117 -198- 189